

بسم الله الرحمن الرحيم توطئة

أعود الآن مجدداً الى ما يدعى بالحملة الصليبية الثالثة لأقدم آخر النصوص الهامة حولها، وبهذا النص أختتم المجلدات الأربعة التي استدركتها على الحلقة الأولى من موسوعتنا، وسأنتقل بعونه تعالى نحو الحملة الخامسة وماتلاها، وذلك مع نصوص الرحلات ونصين آخرين هامين جداً.

وسلنت الإشارة الى أهمية الحملة الثالثة، ومن هنا تأتي أهمية مصادر أخبارها، ومصدرنا اليوم وثائقي عاصر الحملة، أو نهل عمّن عاصرها، وساق أخبارها شعراً، حوى صوراً رائعة، فللشعر دوماً أدائه المتميز.

وفي مدخل هذا المجلد دراسة مركزة حول هذا الشعر ومصادره وأهميته ومقارنته بمواد المجلد المتقدم، وأضفت مواد هذا الشعر، مثل مواد المجلد المتقدم القداسة على أعمال رتشارد الثاني ملك انكلترا، لكن على الرغم من كل ذلك، لقد كان هذا الملك طائشاً دموياً متهوراً، حمل عقلية القرصان، ونفسية متعطشة للثروة والذهب بأي ثمن كان، فهو قد باع كل شيء في مملكته، ولو وجد من يشتري لندن منه لباعه إياها، وعندما حط رحاله في صقلية نهب أهلها، وابتز ملكها، ثم قصد قبرص فاجتاحها وسلبها واستولى عليها، ولم يغير سلوكه هذا في فلسطين فهو على هذا لم يقد حملة مقدسة، بل خاض حرباً استعمارية بشعة، وبذلك خط الطريق للحملة الرابعة التي اجتاحت القسطنطينية وأراضي الامبراطورية البيزنطية.

وأعود لأذكر بالدروس التاريخية المستفادة من هذه الحملة، وعلى رأسها أنه بفضل الوحدة فيما بين مصر الشام استطاع صلاح الدين الصمود، واحباط أهداف الحملة، فمن ذلك الحين شكلت دولة الشام ومصر المكافئ للغرب الصليبي، والمسؤول عن الثقافة العربية والحضارة الاسلامية حتى تاريخ استيلاء العثمانيين على هذه البلاد، ولذلك على العرب في الشام ومصر التوحد مجدداً حتى تجتمع الأمة من جديد، ولكي تجري أعمال استئناف تحرير فلسطين، كل فلسطين.

ومن الدروس التاريخية لهذه الحملة ماتعلق بدور الامبراطورية البيزنطية، فقبلها قدمت بيزنطة التسهيلات الكبيرة للفرنجة الزاحفين براً، وتدخلت مراراً لحماية دويلات الفرنجة في الشام، لكن نجاح نقل القوات الانكليزية والفرنسية بحراً اذن بالاستغناء عن الأراضي البيزنطية، وبالتالي عن الدور البيزنطي كله، ونظراً لشهرة بيزنطة بالثراء، ولتعطش ملوك الفرنجة للذهب والثروة، كانت القسطنطينية أول ضحاياهم، وبذلك عجلوا في دمار الامبراطورية وسيرها نحو الزوال من الوجود.

وهذه الدروس مفيدة جداً في أيامنا هذه، فبالوحدة يمكن للعرب السير نحو العتق من الصلف والرعونة الأمريكية-الصهيونية، ولعل بين قادة تركيا من يتعظ بدروس التاريخ فيدرك مآل التعاون مع الصهيونية.

هذا وليس من السهل نقل الشعر التاريخي الملحمي الى العربية، فهو حتماً سيتحول الى نثر وإن تمت المحافظة على تقسيمات أبياته، ولقد بذلت غاية الجهد في سبيل الحفاظ على شيء من الروح الشاعرية لكن ليس على حساب الأمانة بالترجمة ودون أدنى تصرف بالمعاني والمادة الإخبارية، ولقد كان بودي الجمع في هذا المجلد بين الفائدة الأدبية الشعرية والفائدة التاريخية، وهذا ماتعذر علي، ولقد آثرت الهدف التاريخي على سواه، فموسوعي تاريخية بالدرجة الأولى.

لاشك أن القارئ العربي والباحث بات الآن يمتلك مادة شاملة
حول أحداث الحملة الثالثة، التي كانت الفيصل بين جميع
الحملة، والله الموفق والمستعان وله دوماً الحمد والشكر، ومنه جل وعلا
أستمد العون لاكمال هذا المشروع الذي سيصل الى ستين مجلده.
والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين.

سهيل زكار

دمشق ٢٦ محرم ١٤١٩هـ

٢٢ أيار ١٩٩٨م

مدخل

لشعر المقدم هنا قيمة استثنائية لكل من المؤرخ وتلميذ الأدب الوسيط ، فبين جميع الروايات التي تحدثت عن صليبية رتشارد وكتبت من قبل الذين عاشوها يقدم كتاب أمبروز الحامل لعنوان « تاريخ الحملة المقدسة » وكتاب « رحلة الملك رتشارد » أكمل روايات فيها إحاطة بما حدث ، نمتلكها حتى الآن ، فهذان الكتابان يغطيان بالفعل الجزء الأعظم من معلوماتنا الواقعية حول هذه الحملة التي كتب لها الاحباط ، ومرويات شهود العيان دوماً ثمينة ، وقيمتها مضاعفة بالنسبة لأحداث العصور الوسطى ، لأن الذي بقي لنا ووصل إلينا لا يتعدى القليل من المدونات ، وبالنسبة لكتاب « تاريخ الحملة المقدسة » هو كتاب شاهد عيان ، وهو كتاب بالنسبة لعدد كبير من العلماء المختصين مقبول كما هو ، ومثمن ومصدق ، وكما سنذكر في المستقبل في هذا المدخل ، يعد النص الذي نقدمه الآن نسخة طبق الأصل عن الرواية المباشرة لواحد كان قد رأى الأحداث التي تولى وصفها ، ولدينا من الأسباب ما يدعونا الى الاعتقاد أن النص الحالي قلّد النص الأصلي ونسخه بشكل صحيح ودقيق الى أبعد الحدود ، وأنه قد كتب بعد أمد وجيز من انتهاء الحملة الصليبية ، وعلى هذا يمتلك قيمة وثائقية ويساوى الى أبعد الحدود الرواية الأولى المباشرة.

أهمية الشعر

يحتل هذا الشعر كقطعة أدبية وفنية مكانة فريدة ، ويمثل حال الانتقال فيما بين وضع الحكايات البطولية لأناشيد الأعمال وبين الروايات المصنفة نشراً من قبل كتاب مثل فلهاردين وجوانفيل ، ومهما كان موقفنا تجاه النظريات المتعلقة بأصل الملحمة التي قدمها جوزف بيديروالذين اتبعوا خطاه، يمكننا بثقة أن نفترض أن انسان العصور الوسطى تقبل بمثابة حقائق ما جاء في حكايات شارلمان ، ووليم أوف أورانج ، ودون أوف مينيس mayence وهي الحكايات التي زودت أناشيد الأعمال بإدتها ، وبذل الشعراء جهوداً كبيرة في سبيل تأكيد مصداقية حكاياتهم ، وطوقوا هذه الحكايات وأحاطوها بشيء يشبه الأجواء البطولية المثيرة ، مع أنهم يروون حكايات حوادث يفترض أنها وقعت قبل ثلاثمائة سنة أو أربعمائة قبل ولادتهم ، وصلب هذه الحكايات بالنسبة لهم تاريخ قديم .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر لدينا في التاريخ الذي بين أيدينا كاتب يتولى حكاية وقائع حديثة كانت ما تزال قائمة بذاكرة أناس سمعوا كلماته أو قرأوها ، ولقد تولى سرد رواياته بشعر منظوم وكان هذا بالنسبة للذين كانوا لا يعرفون اللاتينية فصلاً عظيماً من التاريخ المعاصر ، ولدينا هنا مراسل تولى بالدارجة رواية أخبار آخر الأحداث في الصراع في سبيل خنق الاسلام وإبقاء الغرب الأوروبي للمسيحية ، وقد كتب نظماً لأنه كان شاعراً جوالاً ومغنياً ، تدرب على فن الكتابة وكان الشعر المنظوم هو الوسيلة الطبيعية والمتوارثة في رواياته حكاية تطلب الحال قراءتها بصوت مرتفع مسموع ، ولقد روى وقائع وحكايات تناولت أكثر من مسائل زحف الجيوش ومجيء الحكام خلف بعضهم بعضاً ، والخلافات بين الأسر الحاكمة ، لقد حكى لنا كيف عاش

الانسان العادي وشعر، وشرب ونام، وجاء من بعده فيلها ردين وجوانفيل، وكانا ممن انتمى الى الارستقراطية كما كانا من العسكريين، وقد قدما رواياتيهما نثراً لأنهما كانا رجلاً أفاعيل لا يمتلكان البراعة على نظم الشعر ومعهما جاءت كتابة التاريخ بالدارجة الى الوجود، والذي كان موجوداً قبلهما أولاً الكتابات باللاتينية التي قدم أصحابها الأخبار السياسية والعسكرية الجافة، وكان في الجهة المقابلة «أناشيد الأعمال» الحاوية لكميات هائلة من التقاليد، والأساطير، والدعاية والخيال، وأما الآن فقد بتنا نمتلك بدايات الكتابات التاريخية، وفق معاني هذا الاصطلاح المعاصر.

مصادر الشعر وعلاقته بكتاب

رحلة الملك رتشارد إلى أراضي القدس المقدسة

جاء كتاب «تاريخ الحملة المقدسة» الى النور للمرة الأولى عندما نشر غاستون الباريسي طبعته المحققة من النص مع مواد نقدية محكمة الصنعة، وكان ذلك سنة ١٨٩٧، وكانت مخطوطة هذا الكتاب مودعة على رفوف مكتبة الفاتيكان منذ قرون دون أن تثير انتباه أحد، وذلك في وقت تقبل فيه مؤرخو الحروب الصليبية النص النثري من: التاريخ واعتمده، وأعني بذلك «حملة الملك رتشارد» التي أعطتنا رواية نظيرة، لكن تختلف بعض الشيء في تفاصيل الحوادث المروية من قبلها، وبعدها درس غاستون الباريسي العاملين معاً، قدم في مدخله الدراسي بعض المحصلات التي توصل اليها فيما يتعلق بناظم الشعر وأصالة عمله، وجرى فيما بعد تأكيد بعض هذه المحصلات ورفض بعضهما الآخر من قبل الأبحاث التي جاءت من بعده.

وأطلق ناظم الشعر على نفسه اسم أمبرويز في كثير من الأماكن في شعره ، واستخلص غاستون من هذا أن أمبرويز هذا كان حاضراً شخصياً وشاهداً لمعظم أحداث الحملة الصليبية الثالثة التي تولى حكايتها، وعلى هذا من المتوجب تقبل روايته على أنها رواية شاهد عيان ، باستثناء جزء الرواية الذي يعالج حصار عكا قبل وصول رتشارد ملك انكلترا ، وفيليب ملك فرنسا ، وظهورهما على مسرح الأحداث ، وأوضح الشاعر بشكل محدد عدم امتلاكه لأية معلومات شخصية حول مجريات هذه الأحداث ، التي مع هذا احتلت شطراً كبيراً من شعره (الأبيات ٢٣٨٧ - ٤٥٦٨) ، لكنه رواها اعتماداً على واحد سواه ، ولقد شغلت هذه الرواية مواد الفصل الأول من كتاب الحملة وتوصل العالم الفرنسي الكبير، إثر تأسيسه مناقشاته على مجموعة من أجزاء البيانات الداخلية للنص الى مجموعة من الحقائق ، التي أيدتها الأبحاث المستفيضة وصححتها بالتفاصيل ، لكن ليس بشكل أساسي، وكان ما توصل اليه هو: لم يكن أمبرويز لافارساً من الفرسان ولا رجلاً حمل السلاح ، كما أنه لم يكن كاهناً ، بل كان قارئاً جيداً للشعر الفرنسي في أيامه ، الأمر الذي أشار اليه في عدد كبير من النقاط ، وقد عرف قليلاً أو لا شيء من الأدب اللاتيني ، وكان وفق جميع الاحتمالات مغنياً جوالاً أو شاعراً محترفاً ، وكان من أصل نورماندي ، ثم إن إشارات المتوالية لشخصيات غير معروفة من أحواز منطقة افرو Evreux تسوغ افتراض أنه كان شخصياً من أبناء تلك المنطقة ، ومخطوطة الفاتيكان هي النسخة الوحيدة المعروفة أنها بقيت من نسخ الكتاب ، ويبدو أنها كتبت في انكلترا في حوالي نهاية القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من حقيقة سماتها الأنكلو- نورمانديه ، إن البيانات المتوفرة لا تبرهن أن الأصل تمّ نظمه بذلك اللسان ، كما أننا لا نمتلك ما يبرهن على العكس .

وفي الوقت الذي يمكن فيه قبول تعليقات غاستون الباريسي والوثوق بها ، يبدو أن محصلاته فيما يتعلق بأصل الشعر وعلاقته « برحلة رتشارد » اعتمدت على افتراض ما هو موائم أكثر مما هو مقنع ، وباختصار أمامنا في واقع الحال نصين : واحد هو تاريخ كتب نثراً باللاتينية ، والثاني رواية شعرية كتبت بالفرنسية القديمة ، ويقدم هذان النصان - مع استثناء واحد - روايتين عن الحملة الصليبية الثالثة متشابهتين بالكلمة والمقطع مما يُظهر بداهة وجود علاقة بينهما لا يمكن الجدال حولها ، والاستثناء هو ما تقدمت الإشارة إليه من أن الشعر يحتوي على إضافة هي رواية عن حصار عكا قبل وصول ملكي انكلترا وفرنسا ، وبالنسبة لهذه الإضافة نلاحظ هنا أن التماثل بين العملين أقل أهمية مما هو في أي مكان آخر ، حيث التناظر واضح بشكل كامل .

وقبل اكتشاف « تاريخ الحملة المقدسة » كان مقبولاً بشكل عام أن كتاب « رحلة رتشارد » هو عمل أصيل من إنتاج رجل دين اسمه رتشارد ، أسهم شخصياً في الحملة الصليبية وكتب إما بناء على طلب من أو تحت إشراف وتوجيه راعي دير الثالوث المقدس في لندن ، وجاء هذا على الرغم من حقيقة أن كتاب *De expugnatio Terrae sanctae persaladium Libellec* وهو واحد من بين الشواهد القليلة المتبقية ، ذكر بكل بوضوح ودون وجود أدنى إمكانية لسوء الفهم بأن كتاب الحملة قد ترجم من الفرنسية ، غير أن ستب STUBBS الذي تولى إخراج الطبعة الأساسية من كتاب الرحلة أكد بدون تردد : « أنه من المحال أن يكون الكتاب كتاباً مترجماً » وكان قد كتب هذا عام ١٨٦٤ عندما نشر مجموعة من المصادر الأساسية عن حكم رتشارد ، وقد ساق عدداً من البراهين ليوضح أن مؤلف الـ *Li-bellus* لا بد أنه كان مخطئاً أو مضللاً ، وقبل بالقول أنه إذا وجد أي

نوع من الترجمة لا يعدو وضع بعض الملاحظات التي وردت ودونت باللغة الدارجة الجافة عما حدث أثناء الرحلة ووضعها باللاتينية الرسمية، توصل غاستون الباريسي الذي أنقذ من الإهمال شعراً مبرويز الذي طال دفته ، الى أن هنا المصدر الذي ترجم عنه الكاهن الانكليزي كتاب « الرحلة » وبذلك أهمل أو رفض بالتفصيل حجج ستب ، التي كانت طبيعتها غير ايجابية تماماً ، وأكد أن متابعة النقاش حولها عملاً ليس مجدياً بعدما اكتشفنا الأصل الفرنسي من الكتاب ، الذي تولى رتشارد التابع لدير الثالوث المقدس وضعه باللاتينية ، وصرح بوضوح أن رتشارد قام عن عمد بانتحال الكتاب وأراد أن يضل الناس ويجعلهم يعتقدون أنه شارك في متاعب ومفاخر الحملة الصليبية وكان شاهد عيان للاحداث التي تولى رواية أخبارها .

وناقش المسائل وجاءت مناقشاته بشكل أساسي حسبما يلي :
أولاً يحتوي النص اللاتيني على عدد كبير من آثار كلمات شعرية منظومة التي يوجد بعضها في عدد كبير من أبيات شعر أمبرويز يضاف الى هذا هناك بعض الأسماء المزدوجة التي لا بد أنها وجدت في بعض أجزاء الشعر وقد فقدت من خلال إهمال النساخ ، وثانياً يوجد في نص الكاهن رتشارد اللاتيني بعض الأخطاء ، أو التناقضات ، الأمر الذي يمكن شرحه فقط على أساس الافتراض أن رتشارد لم يفهم النص الفرنسي الذي اعتمد عليه ، وفي إحدى الحالات لم يكن معتاداً على أدب الملاحم الفرنسية القديمة ، مما قاده إلى إقتراف بعض الأخطاء المضحكة ، مثل الذي تعلق بأنغولاند Angoland الذي كان واحداً من الشخصيات المعروفة في ذلك الأدب ، ولعل الأهم من هذا كله حسب تأكيدات غاستون الباريسي أن الكلمات والمقاطع التي وردت في نص رتشارد والتي ليس هناك ما يوازئها في الشعر الفرنسي تظهر من خلال الفحص أنها كانت كلمات للزينة أو مجرد ألفاظ

بلاغية ، وهي على هذا لا تضيف شيئاً لحقائق الرواية ، لأنها بالأساس نوع من أنواع العروض التي هدفت الى إظهار البراعة الأدبية وسعة المعرفة ، التي غالباً ما استهدف رجال الدين للعصور الوسطى من ورائها بهر عيون قرائه ، وأكد ناقدنا أنه من غير المتصور أن يقدم شاعر على ترجمة هذا النوع من العمل التزييني الى لغة سهلة ورواية شعرية مباشرة هي التي نجدها في التاريخ ، هذا من جهة ومن جهة أخرى ، كثيراً ما حدث أن قام المتعلمون اللاتين بتزيين الكتابات السهلة التي دونت باللغة الدارجة بمثل هذه الورود الأدبية التي رأوا أنها ضرورية للرفع من شأنها .

وبالتخلي هكذا جملة واحدة عن الأجزاء الموجودة في نص رتشارد التي لا نظير لها في « التاريخ » أهمل غاستون الباريسي ، أو شرح بطريقة غير مرضية مجموعة متنوعة من البيئات لدى قيامه بالمقارنة بين الكتابين ، وعرض ذلك أمام عين القارئ ، فقد قام رتشارد بالحقيقة بتقديم قطع عديدة من المعلومات ، لا يحتاج المرء الى خيال خصب ليقول إنها تزيين بلاغي ، ومن ذلك بين كثير : الوصف المفصل لرحلة رتشارد من تور الى فيزلي ، ومن فيزلي الى ليون ، والاجتماع فيما بين الملك رتشارد وتانكرد في صقلية ، والخصام بين البيازنة والجنويين ، والتفاصيل المتعلقة بوصف جغرافية كريت ، وأسماء الأساقفة الثلاثة الذين كانوا حضوراً أثناء زواج الملك ، ورواية الرحلة التي قام بها الملك لتفحص غزة والداروم ، وعدد كبير من التواريخ المحددة ، وهذه لائحة من الممكن اطالتها كثيراً .

وعلى غاستون الباريسي وجود هذه المواد الاضافية في « الحملة » بواحد من الاحتمالات التالية : فذلك كان إما بسبب (١) أن هذه المواد استقيت من كتاب رحلة رسمي عن حملة الملك رتشارد ، أو (٢) أنها أضيفت من قبل مصنف الكتاب اللاتيني من خلال معلوماته

الشخصية أو من خلال مصدر غير محدد، أو (٣) أنها وجدت أصلاً بالأصل الفرنسي الشعري، لكنها حذفت أو فقدت من قبل النساخ الذين قاموا بتحويل النص ونسخه ليستخدم من قبل الأجيال القادمة، وفي الوقت الذي هو صحيح أن هذه الشروح بالنسبة لبعض القضايا قائمة في نطاق مملكة الاحتمالات، صحيح أيضاً وبشكل مساوٍ أنها تستند على الحدس وليس على البرهان.

ومن المتوجب أن نشير إلى حقيقة أن أمبروز لديه بعض المواد التي لا يوجد ما يعادلها في «الرحلة» من ذلك يمكن أن نذكر على سبيل المثال التفاصيل المتعلقة بالرسائل التي أرسلها الملك تانكرد إلى الملك رتشارد، وأسماء رجال الكنيسة الذين أعدوا شروط السلام فيما بين الحاكمين، (البيت ١٠٠٧ وما يليه) وكذلك الاتيان على ذكر النسب الرفيع لغني دي لوزغنان (البيت ١٧٢٢ وما يليه) والدعوة المستعجلة من الملك فيليب إلى الملك رتشارد (أبيات ١٨٧٩ - ١٩٠٦) وأشياء أخرى كثيرة.

وقامت كيت نورغيت التي كتبت في سنة ١٩١٠ بإخضاع القضية إلى مزيد من التحليل، ففي الوقت الذي أعطى فيه غاستون الباريسي سنة ١١٩٦ بمثابة التاريخ المحتمل لنظم الشعر الفرنسي، قدمت الأنسة نورغيت دليلاً على أن التاريخ ينبغي أن يكون فيما بين أيلول ١٢٠٣ وتشرين الثاني ١٢٠٧، ورسا برهانها على أن اشارات أمبروز بصيغة الفعل الحاضر وبصيغة الفعل الماضي إلى مختلف شخصيات الحملة الصليبية، قد لا تحمل ما يقنع إلى الذين اعتادوا على تسبب استخدام صيغ الأفعال في الفرنسية القديمة، ومع هذا قدمت قضية مقنعة، فبعد ما درست «الرحلة» بطريقة مماثلة هذه الرحلة التي وصلتنا من خلال ثلاث مخطوطات توصلت إلى المحصلات التالية:

فمن خلال النسخة الأقدم للرحلة - مما هو متوفر لنا الآن - لم

تكتمل هذه النسخة حتى ما بعد ٦ — نيسان ١١٩٩ ، وأن الخاتمة في مخطوطة (ج) من المحتمل أنها أضيفت ليس قبل ١٢٠٢ ، وأن فقرة واحدة في (lib,i) قد كتبت قبل أيلول ١١٩٢ ، وأنه من الناحية التاريخية يحتمل أن الكتاب كله - باستثناء خاتمة مخطوطة (ج) حسبها هي الآن - قد كتب قبل هذا التاريخ .

ولاحظت أن هناك بعض الفقرات التي تتعارض مع هذه المحصلة ، فعللت ذلك وردته الى احتمال أنه أقحم بالنص فيما بعد ، وبالفعل لا نمتلك سبباً لرفض قولها بأن : « التاريخ والرحلة قد صنفا في زمن متقارب من بعضهما بعضاً » ، لكن البيئات التاريخية « غير كافية لتقرير أي واحد من الكتابين بشكله الأصيل هو الأقدم » وبعدها رفضت الأنسة مورغيت إلغاء غاستون الباريسي وحذفه لرتشارد الثالث المقدس ووصفت اسقاطه له على أنه عمل مشين ، مضت نحو حياكة - لكن بالنسبة لتفكيرنا ليس نحو البرهنة - فرضية ، شارك - وفقاً لها - كل من رتشارد وأمبرويز في الحملة الصليبية ، وكانا في الحقيقة صديقين وأبناء لمهنة الكتابة ، وفي الوقت الذي أسهمت فيه الأنسة نورغيت اسهاماً عظيماً في حل هذه المسألة ، إن كتلة البراهين التي جمعتها كما يبدو غير كافية لتسوية استنتاج ، لعل الأفضل أن نقوم بعرضه بكلماتها :

« ذهب شاعر نورماندي اسمه أمبرويز ، ورجل دين انكليزي يفترض أنه كان ريتشارد «الداوي» الذي كان شماساً في دير الثالث المقدس في لندن ، مع بعضهما في الحملة الصليبية بمشابة رفيقين وصديقين ، وفي أثناء الحملة دوّن رتشارد بعض الملاحظات إما بالفرنسية أو باللاتينية ، حول ما عاناه احدهما أو كلاهما معاً بشكل خاص والحشد كله بشكل عام ، كما دوّن أيضاً ما توفر له من معلومات وما استطاع أن يجمعه حول حصار عكا ، من البداية حتى وصولهما الى هناك وقد تولى وضع جزء من

هذه الملاحظات على شكل عمل أدبي كامل الى حد ما ، وفعل ذلك قبل نهاية الحملة الصليبية ، ثم قام بعد سنوات بتصنيف الجميع واخراجهم على شكل كتاب ، هو كتابه الذي وصل إلينا، لكن في الوقت نفسه ، وقبل أن يقوم بهذا العمل، ربما كان قد أعار مسودته الاولى لصديقه النورماندي ، وأن ذلك كان وهما ما يزالان في الأرض المقدسة ، وسبب الاعارة لتتخذ قاعدة لمدونة أخرى حول الحملة الصليبية نفسها، التي عزم الكاتب الأخير على تصنيفها على شكل أناشيد الأعمال التاريخية ، وبالنسبة لما يتعلق بصلب الرواية التاريخية ، كان الذي فعله أمبروز هو ترجمة ملاحظات رفيقه ، ولعل ذلك كان من اللاتينية الى الفرنسية ، أو ربما فقط نقل من الثرالى الشعر ، وتولى الحاق اضافات وحذف وغير حسبما اقترحت عليه أحكامه الخاصة ، وحسبما زودته به ذاكرته حول ما وقع ، وبالنسبة لمدخل التاريخ أردع أيضاً ما التقطه من الذين كانوا موجودين على مشهد الأحداث قبله ، ومن جانب آخر لا بد أن كتاب رتشارد تلقى أيضا اضافات وتعديلات من مصنفه عندما شرع في اعادة النظر به من أجل نشره ، لكن من الواضح أنه لم يراجع مراجعة نهائية من قبله ، وهكذا ظل يحتوي على بعض النواقص والاضطرابات ، مثل الضياع بشأن أنغولاند ، والاضطراب بشأن غارنيير اوف نابلوس ، وحول فدية وليم دي برو، وهي أمور لا بد أنها كانت موجودة في ملاحظاته الأساسية ، لكنها نسيبت في المعسكر وسط ضجيج الحرب ، الذي لم يترك له فرصة ليفكر بها بشكل منادى ، ولهذا بقيت دونها تصحيح وكررت من قبل ناسخ أول فناسخ آخر ، ومن نسخة أولى الى نسخة أخرى» .

وكلما تعمق الانسان في فحص هذين الكتابين ودقق في ذلك ، كلما اتضح له وتصور شيئين : أولهما إن شعر أمبروز لا يمكن أن يكون ترجمة من «الرحلة» وثانيهما إن «الرحلة» لا يمكن أن تكون ترجمة عن أمبروز ،

ومع هذا من الواضح والبديهي إن الكتابين بلا شك ولا نكران قريبين من بعضهما من بعض الجوانب ، وتوصل المحققون لهذه الطبعة الى محصلة تفيد بأن الكتابين صدرا عن مصدر واحد هو الآن مفقود ، وكانوا مسرورين كثيراً عندما وجدوا أن السيد ج . غ . أ دوارز قد توصل من خلال دراسة نافذة ومعمقة الى النظرية نفسها ، وعرض كمية كبيرة من البراهين تؤيد ما ذهب إليه أن المؤلف غير المعروف للأصل المفقود قد كتب بالفرنسية، وربما كتب نثراً، ونحن نعتقد أن الافتراض الأول بين هذين الافتراضين معقول، لكن الثاني قائم على بينة حدسية. وبالنسبة لموقف السيد ادواردز الكامل نشير هنا الى بحثه الذي سوف نغامر فنضم من هنا فقط ملخصاً لبعض الأجزاء الهامة منه، فإحدى النقاط الهامة - على سبيل المثال - تحتوي على اشارتين الى أنغولاند، الملك المسلم الذي ظهر في نشيد أعمال كتب بالفرنسية القديمة تحت اسم أسبريمونت *Aspremont*، وأشار «التاريخ» الى مدينة مسينا كما يلي:

إنها بلدة جيدة وذات موقع جميل

في صقلية، وتطل على

بيت النور (الفاروس) الذي منه يرى الانسان

ريغيو التي استولى عليها أنغولاند

وهنا اشارة الى معلومات صحيحة حول محتوى الأسبريمونت، أي أن أنغولاند قد استولى على ريغيو بالقوة، وتحدث الفقرة النظرية لهذه في الرحلة عن مسينا كما يلي: « *Situ Amoena et plurimum com- modo in confinio siciliae et Risae quae illi famoso Agolando dicitur olim fuisse 1ro servitio suo collata* »

ويمكن أن يعني هذا فقط أن الكاتب عدّ روغيو أنها قد منحت لأنغولاند بمثابة اقطاع مقابل خدمات جرى تقديمها، وبناء عليه اعتقد

أن أنغولاند كان باروناً مسيحياً، ووفقاً لما قاله غاستون الباريسي هذا يعني أن مؤلف «الرحلة» قد أساء فهم «تاريخ الحملة المقدسة» وأخطأ في ترجمته، وتبعاً لما ذهبت إليه الأنسة نورغيت كان الكاهن الذي كتب «الرحلة» غير متمكن من فهم الأدب اللاديني، فسقط في تلك البقعة وأساء فهم بعض قطع أسطورة وضعت أمامه بوساطة كلمات الفهم، وقد شاهد أمبرويز الغلطة في ملاحظات صديقه فتولى تصحيحها بهدوء وسرية داخل نصح.

وتظهر مصاعب هذين الشرحين عندما يدرسا في ضوء الإشارة الثانية إلى أنغولاند، فقد كتب رتشارد الثالث المقدس في الكتاب الخامس الفصل (٢١) مايلي: «وصل أنغولاند الذي كان الأعظم قوة، مع قوات اسلامية لا يمكن عدّها بالنسبة لأي انسان، وبدون عون الرب، إلى ريغيو، وهي مدينة في كاليرا».

ومن الواضح تماماً، ومن البديهي أيضاً أن كاتب هذه الكلمات قدم بشكل صحيح أنغولاند نفسه الذي أشار إليه من قبل بطرائق قابله للانطباق فقط على مسيحي، غير أنه لم يحصل على المعلومة من «التاريخ» الذي لا تحتوي فقرته على أدنى ايباء مهما كان نوعها إلى الأصل الاسلامي لأنغولاند، وذلك على الرغم من الوصف الذي قدمه غاستون الباريسي لهذه الفقرة من أنها أكثر دقة من الفقرة التي تقدمتها، فقد جاء نص هذه الفقرة كما يلي:

وعندما قاد حشوده إلى روما

عندما، أنغولاند، مع قوة كبيرة

جاء من البحر إلى البر في ريغيو

في كاليرا، تلك المملكة الغنية

وبكلمات أخرى يمكن القول إن الكاهن الذي أخطأ في الفقرة الأولى في ذكره لإحدى الحقائق قد تولى فيما بعد تصحيحها حسبما ذكرها في الفقرة الثانية، وهو لم يحصل على تلك الحقيقة من أمبرويز، وقد ناقش هذا السيد ادواردز بقوة، ولكن محصلاته من الصعب البرهنة عليها، ولنستمع إليه وهو يقول: «ويلحق ذلك محصلة أخرى، فإذا أخذنا هاتين الفقرتين حول أنغولاند معاً، لانبرهن على أكثر من السلبية، وبالنسبة لكاتب الرحلة هولم يلاحظ في المقام الأول أن أنغولاند كان مسلماً، ومع ذلك وصفه في فقرة تالية بشكل صحيح على أنه كان مسلماً، ويعلل هذا بأنه قد تنبه بفعل ما في الفقرة الثانية هذه، لكن لا يمكن أن نقول أن وسيلة التنبيه كانت «التاريخ» وبالنتيجة لا بد أن التنبيه كان بوساطة شيء آخر، وعلى هذا لا بد أن غاستون الباريسي قد تبع مشاعر صحيحة عندما علق على وجود «تناقض» قائم فيما بين هاتين الفقرتين، لكن كيف يمكن شرح هذا التناقض؟ وكيف يمكن لكاتب أن يعلم في آن واحد وأن لا يعلم الحقيقة نفسها؟ والشرح الطبيعي الأفضل لهذه القضية هو المتوفرة عادة بالنسبة لمثل هذه الظاهرة لدى الكتاب الآخرين، ويساق الانسان على هذا الى محصلة أن مصنف «الرحلة» لم يكن المؤلف الأصيل، لكنه كان يعيد انتاج عمل كاتب أصيل، لئن كانت - كما حدث - ايماءاته غير واضحة في ذاتها، هولم يفهمها دوماً، ومن المفترض أنه بوساطة هذا الكاتب الأصيل تنبه صاحب «الرحلة» عندما وصف بشكل صحيح في الاشارة الثانية لأنغولاند، على أنه كان قائداً مسلماً.

ويظهر اضطراب آخر وتشوش من قبل كاتب الرحلة في الإشارتين الى غارنيير دي نابولس، ففي إحدى النقاط عدّ بشكل واضح أن غارنيير دي نابولس ومقدم الاستبارية شخصين متميزين عن بعضهما تماماً، ثم مالبت بعد قليل أن أشار الى غارنيير دي نابولس على أنه مقدم الاستبارية، وهكذا - كما لاحظ السيد ادواردز - بدا وهو يعرف ولا يعرف

بالوقت نفسه الحقيقة نفسها، ومن البداهة بمكان أيضاً، كما أشار السيد ادواردز، أن مثل هذه التناقضات مع أمور أخرى، من الصعب أن تتواءم مع فرضية أن رتشارد من الثالث المقدس، قام بكتابة كتابه على أساس الملاحظات الأولى التي صنعت أثناء مجريات الحملة.

وهناك مسألة أخرى أولتها الأنسة نورغيت كثيراً من العناية، لكن السيد ادواردز لامسها بشكل لطيف، ومرّ بها مرور الكرام، وهي وجود عدد كبير من الفقرات في «تاريخ الحملة المقدسة» أشار فيها الشاعر الى مصادر مكتوبة إنما غير محدودة، استقى منها مواده، واستخدم عبارات مثل: «هكذا جاء في التاريخ» و«وهكذا ذكر في الكتب» و«وهذا ما أكدته الكتابات» وما يشبه هذا، وعدت الأنسة نورغيت تكرار هذه العبارات بشبهة دليل داعم لنظريتها القائلة بأن أمبرويز كان يترجم عن الرحلة، وبشأن هذه النقطة ينبغي صنع ثلاث ملاحظات: الأولى، حسبما لاحظت هي نفسها - إن مثل هذه الصيغة سلعة استخدمت دوماً في تجارة شعراء الغناء في العصور الوسطى، الذين حاولوا تقديم نوع من أنواع التوثيق خكاياتهم الخيالية والمثيرة جداً، مثل القول: «أنا رأيت هذا مكتوباً، ولا بد أنه كان صحيحاً»، ثم إن تكرار هذه العبارات ليس عظيماً بشكل لافت للانتباه في شعر تجاوز الاثني عشر ألف بيت، وهو لا يمكن أن يبرهن على أن أمبرويز كان يترجم من اللاتينية، والثانية: من الواضح أن التاريخ «قد كتب من أجل الالقاء بصوت مرتفع، وليس من أجل القراءة، ولقد خاطب الشاعر بنفسه في بعض الأحيان مستمعيه ولم يخاطب قراءه، وإعتاد المغنون في العصور الوسطى بشكل عام على تلاوة مصادر مكتوبة، وجدير بالملاحظة أن رتشارد الثالث المقدس قد أشار مرتين في التوطئة «للرحلة» ليس الى قراءة بل الى مستمعيين، وهذه حقيقة، يمكن لتخمينات السيد ادواردز أن تشرحها بوساطة نظرية أن الكلمات موضوع السؤال تمثل صدى لشيء ظهر في توطئة الأصل الفرنسي

للكتاب الذي كان رتشارد يتولى ترجمته. والملاحظة الثالثة، وربما الأكثر أهمية، هي وجود عبارات «هكذا ذكر في الكتاب» وهذا متوائم تمام المواءمة مع الفرضية التي نعتقد أنها فرضية صحيحة، وهي: إن الكتابين قد صدرا عن أصل عام.

وبرأي المترجمين الحاليين هناك حقائق أخرى تقدم امكانات لهذه الفرضية، أولاً: في الوقت الذي يسير فيه المجرى العام للرواية بتناظر، وبطريقة متطابقة في الكتابين، تولى أحد الكاتبين حذف عدد من الحقائق المحدودة تولى الآخر تضمينها، وقد قمنا بذكر بعض هذه الحقائق، ويبدو أنه من غير المرغوب به إثقال هذا المدخل بقائمة كاملة بهذه الحقائق، «والرحلة» غنية في اعطاء تواريخ محدودة، أخفق «التاريخ» في ذكرها، ولاشك أن الشاعر قد وجد - كما وجد المترجم الحالي - أن ذكر التواريخ مريبك في الشعر. وفي جميع الأحوال، نقترح أن كل كاتب قد حذف تفاصيل وجدت في الأصل العام، قد رآها غير ضرورية، ثم إن ناظم «التاريخ» بشكل خاص قد تولى حذف حقائق كان من الصعب عرضها شعرياً.

وفي المقام الثاني، بصرف النظر عن الأبيات الاضافية ٢٣٨٧-٤٥٦٨، هناك نقاط كثيرة جداً فيها اختلف الكاتبان في ذكرهما للحقائق، وبصرف النظر عن الحقائق غير المهمة أو من السهل تحليلها بسبب وجود انهييار جسر الرون عند ليون عبر الجيش بقوارب صغيرة (bargetes) في حين أوضح كتاب «الرحلة» أنه جرى بناء جسر من القوارب، ولدى عرض شروط المعاهدة التي أبرمت مع الملك تانكرد صاحب صقلية، قدم كل كاتب بعض شروط التعاهد التي تجاوزها الآخر صامتاً، وتنطبق صحة الملاحظة نفسها على الاتفاقية التي عقدت فيما بين غي دي لوزغنان، وكونراد دي مونتفرات، وليس بعيداً عن الصحة أن نستنتج أنه في هاتين المسألتين اختار كل كاتب شروط السلام التي ظن

أنها هي الأكثر أهمية، كما أن الحذف قد وقع لأسباب بديهيّة أخرى، ففي التاريخ نجد اسم غلبرت تيلبوز، وكان فارساً جاء اسمه باللاتينية جيراردوس ونرى أن الخلاف قد نشأ عن الخلاف في تفسير المختصرات في النص الأصيل، والسبب نفسه هو ربما ضلل الكاتبين في المسألة التي تعلقت بالاسم الشخصي لدوق بيرغندي الذي أورده على شكل هنريكوس وهنري، في حين كان اسمه بالواقع هيوج، ومن الواضح أن مؤلف «الرحلة» قد صحف قراءة ملاحظة أو كلمة وردت بالفرنسية هي التي أعطت «وسط الخريف» لتاريخ ذكره «التاريخ» بشكل صحيح على أنه كان «وسط-آب» (Miaust) وعلق السيد أدواردز بما فيه الكفاية على هذه الفقرة الأخيرة، وعلى بيت شعر غريب، قال فيه الكاتب اللاتيني بأن الحجاج استراحوا لدى زيارتهم القدس الى «جانب جبل» في حين جاء بالنص الفرنسي «جانب جدار»، ولدى النظرة الأولى قد تكون هذه المسائل غير هامة، لكن السيد أدواردز بين أن عدم أهميتهم يعطيهم أهمية، فبعيد عن التصور الاعتقاد أنهم يمثلون تصحيحات من كاتب آخر، بل يمكن بسهولة أن يتصورهم ممثلين لتفسير مختلف لنص أساسي محدد، ولفتت الأنسة دوروثي بوفي الانتباه الى خلاف نصي آخر يمضي بالاتجاه نفسه، مع أنها لم تستنتج منه ما يبدو لنا استنتاجاً بديهيّاً، فقد وصفت «الرحلة» ربح واحد من الأمراء المسلمين الأقوياء على أنه: «أثقل من اثنين من رماحنا»، في حين جاء في نص «التاريخ»: «لا يمكن أن يعثر في كل فرنسا على ربحين أثقل منه»، ومن الممكن أن نلاحظ في هاتين الفقرتين أنه واضح تمام الوضوح في الفرنسية واللاتينية، أنه من غير الممكن تصور سوء تفسيرهما من قبل أي إنسان كان يعرف ما فيه الكفاية ليرجم أيّاً من الفقرتين، لكن إذا كان كل واحد منهما قد اعتمد على أصل كان أقل وضوحاً، فإن الخلاف يبدو على الفور مفهوماً.

وأوضحنا لدى بحثنا للإشارات الى أنغولاند وغارنيير دي نابولس أن

كاتب «الرحلة» اقتيد نحو الخطأ في ذكر الحقيقة، وهناك أخطاء أخرى مماثلة ظاهرة في روايته، فقد ذكر على سبيل المثال خبر مقابلة جرت فيما بين الملك رتشارد وتانكرد، عقدت في كاتانيا، التي قال عنها بأنها قامت في منتصف الطريق فيما بين مسينا وبلرم، ومامن واحد يعرف جغرافية صقلية يمكن أن يقع في مثل هذا الوهم، ذلك أن المدن الثلاثة قائمة على الساحل، وكاتانيا إلى حد كبير واقعة إلى الجنوب من مسينا، بينما تقع بلرم إلى حد ما إلى الغرب من مسينا، وهذا ولم يذكر «التاريخ» مثل هذا الاجتماع.

ولعله أكثر إثارة الفجرات التي ذكر فيها رتشارد الثالث المقدس، وأشار في ثلاث نقاط منفصلة عن بعضها بعضاً إلى تراجع صلاح الدين إلى الداروم، التي حدد موقعها في الجبال، كما وأشار إلى نشاطه هناك، وفي إلقاء نظرة عابرة على أي خريطة يتبين أن الداروم ليست قائمة في منطقة هضبية بل موجودة على ساحل البحر، على بعد أميال كثيرة عن مسرح الأعمال المشار إليه في كل مكان من النص، وحدد أمبروز بشكل صحيح وقائع كل واحدة من هذه الأحوال في النطرون، وكتب المحقق العالم «للرحلة»، طبعاً قبل اكتشاف التاريخ ما عبر فيه عن عدم رضاه عما جاء في النص.

وبالنسبة لما تبقى من خلافات فيما بين الروائين نضيف هنا ثلاث نقاط يبدو أنهن لم يجذبن انتباه السيد ادواردز: فقد شارك إيرل أوف ليستر في أحد الاشتباكات حيث تعرض للضغط الشديد من قبل المسلمين الذين أحاطوا به من كل جانب، ولدى ذكر ذلك استخدم أمبروز العبارة التالية: « Qu'il'avoient entr'els noie » التي بات فيها المعنى المجازي للفعل « noyer بديهياً بمرافقة entr'el »، ويبدو أن الكاتب اللاتيني أخذ الرسم الكتابي على أنه حرفي مع أن المتصارعين كانوا قد اجتازوا الجدول الوحيد الذي جرى ذكره في السياق، لأنه نقل الفكرة بكلمات لا تقبل تفسيراً آخر، بقوله:

« In Ipso Flamin Profemodum sub mergerent»
وبعد وقت قصير انقضى إثر الحادث الذي تقدم ذكره تناقش قادة
الفرنجة حول حكمة مهاجمة القدس، ونصح الداوية والاستبارية
والبوليان (البلديون)، الذين امتلكوا معلومات صحيحة حول الأوضاع
المحلية، ضد مثل هذا الهجوم، لأسباب عرضها كلا الكاتبان في بعض
التفصيل، وفي نهاية المناقشة قدم النص اللاتيني تأكيداً مدهشاً بأن
مؤتمرهم وماتوا وصلوا إليه لم يصغ إليه بقوله:

sed adhuc consilium eorum non om nino eau-

«diturâ مع أن كل شيء في بقية روايته يظهر بوضوح أن نصيحة
المؤتمرين لم يصغ إليها فقط بل أخذ بها واتبعت أيضاً، ولا يحتوي التاريخ
على مثل هذا الذكر، الذي نعتقد أنه تأسس - مثل أمور أخرى - على سوء
تفسير للنص الأصلي.

وفيما يتعلق بالروايات التي أتت على ذكر مرض الملك رتشارد التي
قدمها الكاتبان نلاحظ بشكل غريب الحقيقة التالية، وهي أنه في حين
حاول شماس الثالث المقدس تشخيص سبب المرض، بشكل عرضي
أدنى مما يقدم للمريض، اكتفى المغني الفرنسي وأقنع نفسه بذكر
الأعراض، التي لم يشر إليها الكتاب اللاتيني لآمن قريب وآمن
بعيد، ونقرأ ماورد في الكتابين كما يلي:

« Graviss imam Incunit aegritadinem, quae vuae
vuigo Arnoidia voalur, exignotae regionis con stit-
utione, cum eius naturali complex ione minus
« ònconcor dante

mais le reis Richar Ziert malades

Eaveit boche e levres Fades

D'une emferte que deu maudie

Qu'en apele leonardie

ويبدو من المعقول بالنسبة لنا أن الرواية الأصلية أتت على ذكر كل من الأعراض والأسباب المفترضة للمرض، في حين دون كاتبانا في نصينا المتبقيان لنا ما اعتقده كل واحد منهما هو الأكثر صلة بالموضوع.

ولا يمكننا ختم هذه الدراسة من دون دعوة انتباه القارئ للقضايا الكثيرة التكرار المتعلقة بالأعداد، فهناك حوالي عشرين حالة من هذا القبيل، أعطى الكتابان في إحدى عشرة منها أعداداً مختلفة، وفيما تبقى أعطى أحد النصوص عدداً في حين لم يعط الآخر شيئاً، أو أعطى أحياناً عدداً أكبر، ثم حدث أن انعكس الحال فأعطى الآخر رقماً أعلى، وفي بعض الأحيان كانت الفوارق ضئيلة، مثل في مسألة اسطول الملك رتشارد، حيث ذكر أمبروز أن تعداده كان مائة وسبع سفن، في حين قال النص اللاتيني: مائة وثمان سفن، وجاءت الفوارق في بعض الحالات الأخرى هائلة، ففي الوقت الذي أكد فيه أمبروز أن ثلاثة آلاف صليبي ماتوا من المرض ومن الجوع أثناء حصار عكا وبعد ذلك، جاء الرقم عند رتشارد الثالث المقدس ثلاثمائة ألف، ومن الممكن تعليل بعض الخلافات على أساس أن الكاتبين، أو واحد منهما أخطأ في قراءة، أو لم يصب في تفسير، الأرقام الرومانية الموجودة في الأصل المفترض، وفي حالات أخرى من الصعب رؤية كيف يمكن لهذا أن يحدث أو أن يكون ممكناً، ووجد المترجمون الحاليون أنفسهم مرغمين على الاعتماد على تعليل أن أحد الكاتبين - أو هما معاً - لجأ إلى المبالغة أو الاختصار والتقليل في الأعداد في مختلف النقاط لأسباب تعلقت به شخصياً.

وتؤيد البيئة التي استخرجها السيد ادواردز ونحن أنفسنا أن الكتابين موضوع البحث صدرا عن صيغة عامة اتخذت أساساً، ونعتقد أننا على

الرغم من أن دليلاً واحداً من المواد لا يكفي بنفسه لتأكيد هذه الفرضية، إن العدد الكبير من المعطيات تشير بالاتجاه نفسه وتشجع على اتخاذ فرضية قوية، ولنعرض القضية من وجهة نظر أخرى تختلف بعض الشيء: نحن رأينا من المتعذر الدفاع عن نظرية أن «تاريخ الحملة المقدسة» كان مصدر «الرحلة» - كما اعتقد غاستون الباريسي - أو أنه صدر عن «الرحلة» حسبما اعتقدت الأنسة نورغيت، وما من واحد يمكنه القول ولو للحظة واحدة إن الكتابين مستقلين عن بعضهما، وحتى نحسم الأمور نصل الى محصلة تفيد أن نظريتنا تقدم الشرح الوحيد الممكن للحقائق.

ولابد أن تبقى طبيعة الاصل المفقود مسألة خاضعة للنقاش، وعند السيد ادواردز سببه للاعتقاد أنه قد كتب بالفرنسية، وربما نثراً، وأسبابه التي اعتمدها جيدة بما فيه الكفاية لاقتراح مثل هذه الفرضية، لكنها غير كافية لبرهنتها، ونحن على العموم نميل للاتفاق معه، ونود أن نضيف لما قاله حقيقة مفيدة وموحية في أن عدداً كبيراً من أسماء الاعلام التي ظهرت في النص اللاتيني «للرحلة» وشرطاً كبيراً منها كتب بالصيغة الفرنسية وليس بالصيغة اللاتينية، وهي الصيغة المفترض ظهورهم فيها لو أن الاصل بذلك اللسان، وإذا صح بالفعل وكان النص نصاً فرنسياً قديماً تاريخياً، فهو يشكل نقطة علامة في الأدب، على أساس أنه أول قطعة كتابية نثرية كتبت باللغة الفرنسية، تقدمت بتاريخها بعض الشيء على رواية ذيل تاريخ وليم الصوري وبزمن معتبر على رواية فيلهاردين التاريخية.

السمات الأدبية للشعر

إذا كنا محقين في اعتقادنا بوجود أصل مفقود، كتب - كما هو محتمل

— بالفرنسية، وعنه صدر نص الشعر الحالي، لابد من الوصول إلى محصلة واحدة: لقد سار مؤلف «تاريخ الحملة المقدسة» على خطاه عن قرب وقلد نمطه، ولايسمح التشابه القريب بين «التاريخ» و«الرحلة» باستنتاج آخر، وهكذا إن أي تقدير للمحاسن الأدبية للشاعر الذي نمتلك بالفعل كتابه لابد من إعطائها إلى أبعد الحدود إلى الرجل الذي استقى منه مواده، وبها أننا غير قادرين على تثمين الكتاب الذي لانمتلكه الآن، علينا أن نرضي أنفسنا بتقدير الشعر الذي وصل إلينا، وليس بمقدورنا أن نقرر فيما إذا كان كاتب المخطوطة الموجودة في الفاتيكان هو أو سلفه الذي حمل اسم أمبرويز، لكن من أجل تسهيل العمل استخدمنا ذلك الاسم في تعليقاتنا بمثابة إشارة إلى الرجل الذي كتب الحكاية أولاً، وفي الوقت الذي نؤسس فيه ملاحظتنا على أسلوب ومحتوى النص الحالي، نحفظ بالقول إن هذه الملاحظات قد تكون أكثر صحة في وصفها للشخص القائم في الظل الذي زود جهده النص بهادته وقضيته.

وعرض غاستون الباريسي مجموعة من الأسباب الرائعة للاعتقاد أن الشاعر لم يكن نبيلاً ولاكاهناً أو عسكرياً، لكنه كان مع جميع الاحتمالات شاعراً محترفاً أو مغنياً جوالاً التحق بجيش الملك رتشارد، وأكدت الأبحاث المستفيضة الفرضية القائلة بأنه جاء من إفرو، وهي مقاطعة في نورماندي، التي أضفى على فرسانها ورجالها المسلحين مدحاً خاصاً لشجاعتهم وثباتهم، ولأن أمبرويز كان واحداً من «الرعايا الأدنى مكانة» بين ذلك الحشد، استطاع أن يعطينا رواية بمثل هذه القيمة، اختوت ليس فقط على ذكر ما حدث، بل على الخلفية العقلية والروحية للأحداث، فقد صور نفسية الصليبي مع جميع أمراضها الغريبة في الفوضى والتسيب، ونادراً ماوصل إلى بلاغة أعلى مما فعله لدى وصفه لسرور الحشود لدى ربحتها معركة ما، أو لدى تقدمها نحو القدس

واقترابها منها، أو من تصويره لحالة اليأس التي أمت بالحجاج عندما وجدوا أنفسهم مرغمين على الانعطاف عائدين من المدينة المقدسة، ولقد تقبل الأسباب التي أعطاها رتشارد لرفضه الزحف على القدس وانتقد الذين تعارض موقفهم مع موقف سيده، ومع هذا بكى من أجل القرار الذي أغلق الطريق على الحجاج للوصول إلى الضريح المقدس.

وهو لم يكن عضواً في مجالس اجتماعات قادة الصليبيين، مع أنه روى في بعض الأحيان تفاصيل مناقشاتهم بتأكيد وثقة الذي كان مشاركاً بهم، وهذا ليس بذي أثر عظيم على أي واحد يعرف كيف تأخذ الأشاعات المزيفة والأقاويل المبهمة مكان التوثيق في أي جيش، وكيف تنتشرين صفوفه عاليها ودانيها، ولاشك أن تحريض الكاهن للملك رتشارد وحته على أن يتذكر ماضيه الشهير وأمجاده قد نشأت وراجت من خلال حكايات تداولها الناس في المعسكر حول تهور انسان تجراً على هذه الصورة على مخاطبة قلب الأسد، فضلاً عن هذا يحدثنا أمبروز عما جرى داخل اطار مجالس صلاح الدين الحربية بالتأكيد نفسه والثقة ذاتها التي ميزت أوصافه لما قاله قادة الفرنجة وفكروا به، ومما لاشك فيه أن الخطابات المعزوة إلى أمراء المسلمين لاتعدو مجرد ماتخيله الفرنجة ورغب فيه تفكيرهم، فصوروا أمراء المسلمين وهم يقولون الأشياء التي — برأي الجيش الصليبي — توجب عليهم التفكير بها وقولها.

ولم يشر أمبروز إلى نفسه قط وهو يشارك في القتال، وأكد مع هذا أنه زحف مع فوج الحجاج الثاني الذي زار الأماكن المقدسة بعد ابرام الهدنة مع صلاح الدين، وحدثنا عن انفعالاته وهو يسير شخصياً على الطرقات التي سار عليها المخلص، وفي لحظات ذروة الانفعال هذه أو انعدام الانفعال في حياة الصليبيين تحدث بإخلاص واستقامة الانسان الذي شهد الحدث، ثم إن هذا الاخلاص نفسه، وكذلك لهجة شاهد العيان، نراها منتشرة وظاهرة في معظم أجزاء الكتاب، وهي تعطي القارئ قناعة

قوية أنه يصغي إلى إنسان يعرف ما يتحدث حوله.

وفيما يتعلق بلهجة الاخلاص، نجد أن عمل الشاعر — مع هذا — ليس دوماً متساوياً بسماته، فلصفحات طوال نراه مع كثير من الهدوء، يسير بخطى وثيدة، ويعرض صف حقائقه بمشابة مسألة حقيقية، بدون أي حماس، أو انفعال أو حرارة شاعرية، بل يتكلم ببساطة وبشكل مباشر، وبثقة، لكن بدون التصلب الملكي الذي جعل من نشيد رولاند شيئاً رائعاً جداً، ويعطينا بنظم مزدوج (دوبيت) رواية مباشرة للأحداث، بلا زيادة أو نقصان، وتدفعه الخيالي خفيف، ونادراً ما تجاوز اطار شعراء التروفير Trouvere للعصور الوسطى، ولقد ردد العبارات المعتادة مثل القول: غطت الأسهم والرماح أثناء القتال الجو وملاأت الهواء مثل ثلج ثقيل متساقط في الشتاء، وطارد المنتصرون المهزومين مثلما يطارد الذئب قطيعاً من الغنم لاحول له ولاطول، ولم يتجاوز شاعرنا حدود هذه الجمل وطرائق التعبير.

وتبدو أوصافه لمشاهد القتال محملة بعض الشيء بالنسبة للقارئ المعاصر، مع أن الشاعر بث من خلالهم وباح، كما هو واضح، بشيء من المتعة السادية، التي كان الكاتب في العصور الوسطى يستقيها من تحرك صور أحداث الفيضان وأرض المعركة، وعلى المرء أن يلاحظ بكل بساطة أنه لدى قتال إنسان لأخر على أرض المعركة يتشابهان، وتكون هناك الأعلام التي تحفق في الهواء، والسلاح المشرق، وغيوم من النبال والنشاب، وحملات بلا توقف وضربات قوية وشديدة، وأكوام جثث القتلى، ومع جميع هذه الأمور استطاع الشاعر أن يعطي صورة شفافة ويفترض أنها صحيحة حول التكتيكات وتعبئة القوات وتقلبات تيارات القتال وحظوظ النجاح، ولا تخلو هذه الصفحات من الحيوية، ثم إنها ليست بدون قيمة بالنسبة للمؤرخ العسكري الذي يمكنه أن يقرر الحقائق بقليل من الجهد، والذي افتقد إليه هو شعور التصور الصحيح،

فعلى سبيل المثال أخذ وقوع اشتباك صغير شارك به من على الطرفين عدة عشرات من الرجال فقط عند أمبرويز في روايته كل العظمة والتفخيم التي أخذتها معركة أرسوف وإعادة الاستيلاء على يافا، وسلبت أعمال التكرار التي ظهرت في الرواية هذه المناوشات من أهم سماتها المثيرة.

ولم يكن أمبرويز رحالة صاحب ملاحظات خاصة، وأوصافه لطبوغرافية ومناخ وعمران البلاد التي يفترض أنها كانت جديدة وغريبة بالنسبة له، أوصاف ضئيلة نسبياً، وقد أتى على ذكر بعض الأماكن التي زارها في القدس، وروى لنا بعض الحكايات الأسطورية حول أسوار وأبراج عسقلان، وقدم هنا وهناك بعض التفاصيل العرضية التي استقاها من الأساطير الشعبية أو من أناشيد الأعمال، لكن في هذا المجال لا يمكن مقارنته مع روبرت دي كلاري الذي جمع معلومات ثرية حول الأشياء الرائعة التي رآها في القسطنطينية، وصحيح أنه ذكر حر الصيف والغبار والحشرات السامة والأمطار الغزيرة، لكن أمبرويز أتى على ذكر هذا كله عرضياً فقط، ومجرد خلفية كافحت ضدها الدراما الشخصية للصليبيين، ويشعر الانسان أن هذه الأمور شغلت في ذاتها قليلاً من اهتمام المؤرخ، على أساس أنها كانت قزمة أمام ما عنته العظمة الروحية للمغامرة.

وعلى كل حال كان بإمكان الشاعر أن يكون دراماتيكياً وحيوياً، وأن يحيك ذلك في حكايته في أبيات سريعة وبارعة، ويحيطها بحزم أرجوانية ملطخة بنار الايمان والسخط، فهكذا كانت على سبيل المثال روايته عن سقوط جسر الرون، وعن الاستسلام المذل لاسحق صاحب قبرص، وبطولة جاك دي أفنس، واغتيال كونراد أوف مونتفرات، وأبيات الهجاء التي قذف بها نحو كونراد لترفعه وابتعاده عما اعتقده أمبرويز أنه طريق الصواب، وفي وصفه لزحف الحجاج خلال فرنسا وهم على طريقهم نحو ساحل البحر واستقبالهم من قبل الشعب حيوية مذهشة وعواطف

شجيرة.

ومع أنه لم يكن رجل دين، قلة من رجال الدين تفوقوا عليه في صدق تكريس نفسه للقضية الصليبية، وهو تكريس فيه كل الأحكام المسبقة لروح تقية ساذجة، ولقد شارك بشكل طبيعي بما فيه الكفاية بما راج في الأوساط العامة في العصور الوسطى من أن الكافر يعانى أساساً من خطيئة وشور عدم التعميد، وهذه فكرة ردها نشيد رولاند على شكل صيغة مقررة بأن «المسيحية هي الصواب والكفر هو الخطأ»، وبناء عليه كل مافعله المسلمون هو شر، باستثناء ما حدث في بعض الظروف - وهي لسوء الحظ كثيرة - التي اختارهم الله فيها ليكونوا أداة عقاب للمسيحيين الفاسدين الذين ضلوا وابتعدوا عن سبل الصواب، لكن على الرغم من هذا كله لم يستطع الشاعر أن يقمع إعجابه - رغماً عنه - ببراعتهم في الحرب وشجاعتهم، وبفروسية صلاح الدين وأخلاقه، ولقد أسف لكون هذا الرجل لم يكن مسيحياً، «فلو أنه لم يعبد أرباباً مزيفين (كذا) لكان انساناً لامثيل له».

القيمة التاريخية لأمبرويز

أما وقد قدمنا أسباننا للحكم بأن «الرحلة» و «التاريخ» قد قاما على أصل عام مفقود، سنأخذ حريتنا في هذا المقام لاعتبار الكتابين بمثابة كتاب واحد، ولأن نحاول تقدير القيمة التاريخية للأصل، الذي دعونا اعتبارياً ومن أجل تسهيل العمل «أمبرويز»، وأظهرنا من خلال ملاحظتنا التنوع والخلافات بين «التاريخ» و«الرحلة»، ومن الممكن تلخيص ذلك بالقول إنه في حين أن «الرحلة» بشكل عام أكثر دقة بالنسبة للعرض التاريخي، وأعظم صحة بالنسبة لأسماء الأعلام، هناك

عدة حوادث أعطيت بتفاصيل أفضل في «التاريخ»، إنما كوثيقتين تاريخيتين لهما المكانة نفسها، وسنحاول هنا البحث في قيمة روايتهما مقارنة بمصادر أخرى مستقلة.

وكما بينا من قبل، لا يمكن عد أمبرويز أفضل مصدر منفرد حول جميع أحداث الحملة الصليبية الثالثة، لكنه بدون شك ومؤكد أنه أفضل مصدر للصليبية رتشارد، وقد جرت معالجة الأحداث التي جرت في سورية وقادت إلى الحملة الصليبية، بشكل واسع - لكن ليس بدقة وصحة كاملة - من قبل التاريخ، في حين نجد «الرحلة» التي اعتمدت على «كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري»، أكثر تفصيلاً، لكن ليس أكثر موثوقية، ولعل أفضل رواية كاملة حول الحملة الصليبية الثالثة وردت في مصدر واحد هي الرواية التي نشرت قديماً تحت عنوان «تاريخ هرقل» ثم أعيد نشرها فيما بعد باسم «ذيل تاريخ وليم الصوري»، وتقدم لنا معرفة أن هذا الذيل قد كتب بالفرنسية القديمة، وكان أمبرويز قد حذف كلياً أخبار حملة فردريك بربروسا، وقد أوليت هذه الحملة بعض العناية الأكبر من قبل الرحلة، حيث جرى استمداد عدة فصول من كتاب ذيل تاريخ وليم الصوري، وكان هذا أكثر مما تلقاه «التاريخ»، ومع ذلك «التاريخ والرحلة» معاً مختصرين تماماً، فضلاً عن هذا جاءت رواية أمبرويز عن فيليب أغسطس عرضية ومتعلقة بصليبية رتشارد قلب الأسد، وواضح أن معلوماته عن قبرص - بصرف النظر عن تفاصيل الاستيلاء عليها - خفيفة جداً، ومع هذا لم يقدم أمبرويز أفضل رواية عن الحملات في فلسطين، ولا عن القتال في مسينا ولا في قبرص، وكذلك الأحداث التي وقعت في المعسكر أمام عكا.

ليس في نيتنا هنا القيام بتحليل تاريخ أمبرويز بالتفصيل، لكن مقارنة مختصرة جداً لهذا الكتاب مع مصادر رئيسية أخرى عن الحملة الصليبية الثالثة تضيف إلى تقديرنا للأهمية التاريخية لمؤرخنا، وعلى رأس الروايات

الغربية ماجرى تدوينه في كتاب «هرقل» وفي «جستاهوفدن» (الذي هو بالفعل نفسه) ولدى ديسيتو، وديفايز Devizes، وريغورد Rigord، وفيما يتعلق بما جرى أثناء حصار عكا مع الأحداث التي وقعت قبل وصول رتشارد، من الممكن أن نجد معلومات إضافية في روايات هيماروس Haymarus، ولبلوس Libellus أما فيما يختص بالمصادر المشرقية: يتصدرها بالأهمية (العماد الأصفهاني) وبهاء الدين، وهناك أيضاً المواد الاضافية لدى ابن الأثير وأبو شامة. وابن خلكان وأبو الفرج ابن العبري، وأما بشأن الخلفية التاريخية السورية فلبلوس وهرقل لديها المعلومات الأكثر أهمية، ويظهر أمبرويز في أسوأ أحواله في هذا المقام، غير أن أمبرويز هذا أقر صراحة أن ما أخبرنا به عن هذه الأحداث، تعرف عليه من كتابات الآخرين، وهو لا يمتلك معلومات شخصية حول ذلك، أما تلويحه لروايته بأحكامه الشخصية المسبقة، فأمر سوف يجري بحثه فيما يلي، لكن لا بد من الاعلان هنا أن أمبرويز ليس المصدر الذي يتوجب على المرء الالتفات إليه للحصول على المعلومات حول التاريخ الداخلي لمملكة القدس.

كما أن أمبرويز ليس الأفضل للاعتماد عليه من أجل التأريخ لرتشارد في فرنسا وانكلترا قبل الحملة الصليبية، ذلك أن مواد ديسيتو، وديفايز، وجستاهوفدن فيها الكثير من المزيد من التفاصيل عما حدث في الغرب، وهي مصادر أفضل حول كل من الاستعدادات للحملة الصليبية ومن أجل الحوادث التي وقعت في فرنسا وانكلترا في أثناء غياب رتشارد، لكن بالنسبة لزحف الصليبيين والحرب في صقلية يحتل أمبرويز المقام الأول في الأهمية، فهو هنا قد كتب حول ماراه شخصياً، ومامن مصدر آخر روايته مثل روايته مشرقة وفيها حيوية، ورواية هوفدن مليئة أكثر وفيها دقة أعظم بالنسبة للتأريخ، لكن هذه الرواية تفتقر إلى نقاوة أمبرويز وحيوته، وكتب هوفدن اعتماداً على مصادر مكنته من نقل نصوص المعاهدات،

والأوامر، والقرارات التي اتخذت في المؤتمرات، وهذه معلومات افتقر إليها أمبرويز، وصحيح أن هوفدن أكثر دقة، لكن أمبرويز أكثر حيوية بشروط واسع، فالغابة قد لا تشاهد بوضوح تام، لكن الأشجار أعظم تميزاً، وأوراقها أعظم اخضراراً.

ويقدم لنا أمبرويز الرواية الأفضل تفصيلاً فيما يتعلق باحتلال قبرص، وهنا تحتوي الرواية المدونة على صورة أعمال يحتمل أن أمبرويز قد شارك فيها شخصياً، أو على الأقل رآها تحدث من حوله، وهو صحيح لم يعرف التنظيمات التي وضعها رتشارد من أجل إدارة الجزيرة، الأمر الذي زودنا به هوفدن، لكنه قدم لنا رواية أكثر إثارة حول القتال وحول أسر إسحق.

ومجدداً اعتمد أمبرويز فيما يتعلق بأحداث حصار عكا، على معلومات الآخرين، ولدينا هنا بوضوح حكايات حوادث تناقلها الناس من خيمة إلى خيمة، والترتيب التاريخي في هذا الجزء لدى أمبرويز مضطرب كثيراً، وهناك ترتيب ضئيل لتسلسل المعارك، لكن آفاق الأفراد، ومعاناة الحشد، وأفراحه، وترح الحجاج وبأسهم، رويت بحيوية ودرامية، وتحسن السرد التاريخي لديه بعد وصول رتشارد، وتعادل رواية أمبرويز حول نهاية الحصار الروايات الأخرى.

وصحيح أنه حذف كل المناقشات الهامة ذات التفاصيل الكثيرة، التي نتعرف إليها من المصادر الأخرى، ولعله فعل ذلك لأنه اهتم فقط بتلاوة أعمال رتشارد والأحداث غير المرتبطة بهذه الأعمال، والتي تبعده عن هذه الغاية المفردة هي حتى أقل وروداً في «التاريخ» منها في «الرحلة»، أما رحلة فيليب لدى عودته إلى الوطن فقد تلقت كثيراً من العناية من قبل هوفدن في حين أنها حذفت كلياً من قبل أمبرويز، ذلك أنه اهتم برواية أخبار أفاعيل رتشارد قلب الأسد، ولم يهتم بالأفاعيل الأدنى للأناس الذين رأهم أقل مرتبة، وقدم كل من هرقل وليبلوس وهيماروس روايات أكثر صلة بالحصار بشكل عام، لكن أمبرويز تفوق عليهم بما تعلق

بالشأن الشخصي الخاص.

وأمبرويز في قصته عن حملة رتشارد في فلسطين فريد ورائع، و فقط شابهه بهاء الدين في ايقافه نفسه على أعمال بطله فقط، ولديه يمكن للمرء أن يجد روايات جيدة عن معارك الحملة الثالثة، وجرى من قبل أمبرويز تدوين تفاصيل الزحوف والمعارك، والصراعات البطولية و متع وآلام الحجاج عندما ابتسم لهم الحظ أو قطب، بشكل متدفق وحيوي ومتعاطف، ولم تكن المباحثات من أجل الهدن معلومة لديه وبقي جملها غير مذكور عنده ما لم تكن المعلومات قد أصبحت معروفة ومتداولة في أرجاء المعسكر، فلقد كان أمبرويز مجرد واحد من بين حشد الحجاج الذي سار إلى حيث قاده أميره، دون أن يعرف لماذا، و فقط كان يتوقع شيئاً ما حول الدوافع التي دفعت نحو القرار المتخذ، ولقد شرح مثل هذه القرارات ببساطة وسذاجة، وكانت الخيانة، وسوء الثقة، والأنانية تلقى لديه قبولاً أعظم من الأسباب المعطاة حول الأحوال والاستراتيجية التي حرمت القادة.

ولاحظنا أن أمبرويز قد لون روايته كلها بتحاملة الشخصي القوي، فلقد كتب بمثابة واحد كرس نفسه في سبيل الولاء لرتشارد وجميع رفاق رتشارد وحاشيته، وملاحظ هذا بشكل خاص في معالجته لما تعلق بغي لوزغنان وكونراد أوف مونترفرات، وهناك اتجاه قوي جداً للقول بأن جميع رواياته عن تاريخ القدس قبل بداية حصار عكا هي شبه مزيفة، فقد حصل أمبرويز على معلوماته كلها حول تلك الأحداث من مصادر ثانوية، وكلياً كما يبدو من الموالين لغني، وهو لم يفهم قط نفسية أو مشاكل الفرنجة السوريين، ولقد عبر أمبرويز تماماً عن ميول الصليبيين الغربيين في معاكسة وتضاد لميول الفرنجة المستعمرين في سورية، وكان المسلمون بالنسبة لهم جميعاً «قطيعاً من الكفار»، وعبر عن متعة سادية في وصف قتلهم وسوء حظهم، ومع هذا كله أتى على ذكر بعض «تائع كرم

صلاح الدين وأخلاقه الرفيعة، وكذلك سيف الدين، ولم يتحدث عنهما بانسراح وإطراء، وبعاطفة ومشاعر تقوى استنزل لعنات الرب ضد جميع المسلمين، هذا ولم يأت على ذكر حوادث إعجازية، كما أنه لم يدون حكايات تعلقت بتدخلات للقديسين لصالح جيش الفرنجة كما فعل بعض مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، ولقد رأى في معاناة الفرنجة أدلة على غضب الرب تجاه الأعمال الفاسدة للناس، وكانت محن القدس بالنسبة له نتيجة مباشرة لعدم تقوى سكانها.

وبالمقارنة مع أمبرويز علينا أن نتفحص مواد ذيل تاريخ وليم الصوري، التي كانت تنسب من قبل لأرنول وهرقل، فقد كتب الذيل من قبل فرنجي بلدي من فرنجة سورية، وقد مثل الفرنجة «المستعمرين» في تميزهم عن «الصليبيين البحريين الوافدين»، فهؤلاء لم يوافقوا أمبرويز على وجهة نظره، وخالفوه في تفسيرهم الإجمالي للحوادث التي أدت إلى قيام الحملة الثالثة، ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه الأعداء بالنسبة لهم، لم يوجد بينهم مطلقاً نوع الكراهية العنصرية التي توفرت في مشاعر الكتاب الغربيين وظهرت في كتاباتهم، فقد كتبوا عن المسلمين مثل انكليزي كتب في تلك الأثناء عن الفرنسيين، أو مثل كاتب انكليزي كتب في العصر الحديث عن الإيطاليين في بداية الحرب الكونية الثانية، وقال عنهم: «جيران معادون فيهم ما فيه الكفاية من الشور، لكن لديهم بعض الفضائل»، ولم يراقب الفرنجة الشرقيون تقلبات حظوظ الحرب بالحرارة نفسها التي شعر بها الفرنجة الوافدون، ولم يشمتوا تجاه محن المسلمين الذين قتلوا في المعارك مثلما فعل أمبرويز.

وعرف هؤلاء الفرنجة البلديون شخصياً الوضع في الشرق، وحكموا على الأحداث من وجهة النظر السياسية، وآثروا في قراراتهم مصالح مملكتهم وفضلوها على التعصب للصليب، فهؤلاء الرجال كانوا يدركون نتائج الأحداث والتوريطات، ولذلك كان كل من ريموند صاحب

طرابلس وكونراد دي مونتفرات بطليهما في رواية الأحداث، وليساً نذلين، لكنهما ظهرا لدى أمبرويز خائنين منحطين ومتأمرين شريرين بسبب أحكامه المسبقة ومعلوماته السقيمة، وعندما يدرس المرء الاجماع الذي أبداه بارونات الفرنجة البلدين -الذين امتلكوا الجزء الأعظم من الأرض- في تأييدهم لريموند وكونراد، ثم عندما يتفحص بدقة أخبار حزب البلاط في ظل غي وأرناط، وينسى الأحكام الدينية والمواقف المسبقة، ويقدر المتطلبات السياسية فقط، لايمكنه إلا وأن يدرك أن ريموند وكونراد قد مثلا الحزب الذي ضم أفضل العناصر التي وجدت في مملكة القدس وقاداه، في القدرة وصواب الرأي والبصيرة، ولعن أمبرويز كونراد لتحويله المؤن من المعسكر أمام عكا إلى مدينة صور التي كانت تحت حكمه، وهنا هو لم يقدر مطلقاً حقيقة أن الدفاع عن صور كان ينبغي أن يحتل المقام الأول في اهتمامات الفرنجة البلدين، الذين كان برأيهم حصار عكا مغامرة لديهم أمل قليل بنجاحها، في حين كان الحفاظ على صور يشكل الركن الأساسي في الدفاع عن المملكة، ونسي أمبرويز، أو أنه لم يعرف أن اللاجئين من جميع المدن التي استولى عليها صلاح الدين كانوا في صور، ولقد تجاهل حقيقة أنه على صخرة مقاومة كونراد في صور تحطمت موجة الفتح الاسلامي، وقد أدان بمثابة خيانة المباحثات مع صلاح الدين من أجل الحفاظ على جزء من المملكة بمثابة دولة تابعة، لكن ليس لديه أي نقد لرتشارد عندما عرض هذا الملك فيما بعد الشروط نفسها تقريباً على السلطان، عندما أدرك استحالة اعادة الاستيلاء بشكل كامل، وكثيراً ما عبر غي دي لوزغنان عن عدم كفاءة سياسة وعجز عسكري، ولم يثق به لوردات سورية ورفضوا القبول بقيادته، وهم بالحري وثقوا بكونراد الذي برهن على بسالته في صور، لكن لم يخطر ببال أمبرويز قط أن لوردات الفرنجة السوريين كانوا سوى خونة وزائفين عندما أيدوا الحزب المعادي لرتشارد، كما أنه لم يدرك أن فيليب اغسطس قد أظهر فطنة سياسية كبيرة عندما أيد المركز أكثر من رتشارد

عندما ساعد غي، وإذا ما اتخذنا بينات معاملة رتشارد لأخيه جون ولبعض الذين أنابهم عنه، في سبيل الحكم على تاريخ حكمه، نجد عجز الملك في الحكم على السمات أو على الكفاءة، ولم يمتلك أمبرويز شكوكاً من هذا النوع، أو أنه كما يبدو لم يشعر بأي تناقض لافي أرائه ولا في سياسة بطله عندما قبل مؤخراً بكونراد ملكاً على القدس، فقد تحول الشرير فجأة إلى حليف البطل وتم الاعتراف به من قبل الجميع على أنه أحسن رجل للمنصب الذي رشح إليه، وبين ليلة وضحاها غدا المركز الزائف المرشح المفضل للعرش، ودون أمبرويز هذا التبديل بالمواقف الذي قبله رتشارد بعدما تطور لي عرف حاجات البلاد، واستحالة الاستمرار في تقديم التأييد للوزغان المنعدم الكفاءة والذي كان بلا شعبية، دون ذلك كله دون تقديم كلمة واحدة للشرح والتفسير.

وينبغي أن نتذكر أنه خلال تاريخ الدول الصليبية، كانت هنالك حوادث كثيرة كان فيها الفرنجة البلديين أفضل قدرة في معالجتها مع جيرانهم المسلمين، أكثر مما كانوا مع حلفائهم المسيحيين من الغرب، فعندما عرض كونراد التبعية على صلاح الدين، كان يفكر في إنهاء الحرب التي كانت مستعرة في البلاد من دون أدنى فرصة بالنجاح، ولقد أدرك أن تبعية مشرفة مفضلة على مملكة مدمرة شععتها سنوات من الحرب المحللة، وفي النهاية تقبل رتشارد هذا الرأي، ومن المؤكد أن عروض كونراد لم تكن خيانية أكثر من اقتراحات رتشارد في أن يعاد بناء مملكة القدس بمثابة مملكة تابعة، يقدم ملوكها الولاء لصلاح الدين، ويزودوا جيشه بالعساكر وقت الحاجة وحسب الطلب، ولا سيما عندما نتذكر أن اقتراحات رتشارد قد تضمنت أن تتزوج أخته من سيف الدين، وأن تمنح المملكة لها مشاركة معاً. ولم يكن رتشارد أحقاً، ولقد تعلم أثناء الحملة في فلسطين الكثير، فلقد اكتشف استحالة إعادة استيلاء كاملة للمملكة، وتوصل إلى أن يدرك أن حزب البارونات كان يعرف ماذا

يجري وماذا يريد عندما فضل كونراد، وتطور ليقدّم إمكانية الوصول الى اتفاقات مشرفة بين رجال انتموا الى عقائد مختلفة، وطور رتشارد الميول الاستعمارية، فقد كان هو نفسه فارساً، ومعلماً في فن الحرب، كما أنه كان قادراً على إدراك هذه السمات لدى خصمه العظيم، ولم يكن أمبرويز قادراً قط على تعلم هذه الأشياء فهو قد تقبل قرارات ملكه بالتسليم الأعمى وبدون سؤال.

وعلى الرغم من أحكام أمبرويز المسبقة، وانحيازه الكامل، وكل تقواه وتعطشه للدماء، وكذلك على الرغم من التكرار الملحمي في رواياته والمبالغات، سيبقى مع هذا كتاب أمبرويز الحاوي للرواية الأفضل من سواها حول صليبية رتشارد، وأهم وثيقة موجودة تكشف عقلية الصليبيين وتعبر عن نفوس هؤلاء الرجال الذين رموا بأنفسهم قلباً وروحاً في حرب مأساوية مخففة، وتحملوا المشاق والاحباطات من أجل هدف ديني ومعنوي، و«التاريخ» أكثر من هذا كله، إنه الملحمة والنشيد، وكتاب أعمال واحد من أعظم الشخصيات المسيحية رومانسية وتدفعاً بالحياة.